مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد4 العدد 2، 2007، ص ص 357- 378

صورة أمريكا والأمريكان في الرواية العربية

محمد الخزعلي*

ملخص

تناقش هذه الدراسة صورة أمريكا والأمريكان في ثماني روايات عربية من أقطار عربية مختلفة. يظهر هذا الموضوع عرضياً في بعض هذه الروايات، لكنه أساسي في بقية الروايات. وتناقش الدراسة صورة الأمريكان بوصفهم شخوصاً فردية في أعمال أدبية، وبوصفهم شخوصاً نمطية يمثلون هوية جمعية.لقد كانت الصورة التي عكستها هذه الروايات صورة سلبية على الأغلب، وذلك يعود، كما يبدو، إلى عوامل عديدة من أهمها انحياز أمريكا إلى جانب إسرائيل، وإلى وقوفها ضد طموحات العديد من الشعوب الطامحة إلى الحرية والتقدم. وتشترك هذه الأعمال العربية في هذه الصورة السلبية لأمريكا مع أعمال عالمية أخرى لكتاب من قوميات مختلفة.

تناقش هذه الدراسة صورة أمريكا والأمريكان في ثماني روايات عربية، من أقطار عربية مختلفة. تختلف هذه الروايات في تناولها لموضوع اللقاء الحضاري مع أمريكا؛ فقد كان عرضياً في بعضها وأساسياً في بعضها الآخر. وكذلك عالج بعضها الموضوع من خلال تصويرها للقاء شخصيات عربية مع شخصيات أمريكية، وتصوير سلوك هذه الشخصيات الأمريكية إما بوصفها شخصيات فردية أو شخصيات نمطية نموذجية تمثل الحضارة الأمريكية . ونسارع هنا للتأكيد على أن استخدام لفظة أمريكان، هنا، لا تدل على أشخاص أمريكيين محددين، بل على المجموع العام للهوية الأمريكية بكل ما تمثله من جوانب حضارية سلبية أو إيجابية. وقد عالج بعض هذه الروايات اللقاء الحضاري مع أمريكا من جوانب عديدة، في حين عالج بعضها الآخر هذا الموضوع من خلال تناول جانب واحد أو جوانب محددة من ذلك اللقاء.

تشترك رواية محمد أزوقة، "الثلج الأسود"، مع رواية سلمى الحفار الكزبري، "البرتقال المر"، في أشياء كثيرة. لقد صنع كل منهما بطلاً يمكن أن يقال عنه أنه بطل أُعد إعداداً خاصاً لهذا النوع من اللقاء الحضاري. لقد صنع كل منهما بطلا أعظم من الواقع ليمثل الجانب العربي. إنه بطل متفوق في كل شيء، سواء أكان ذلك على صعيد المظهر الجسدي أم على صعيد الاستعداد العقلي والثقافي الذي يحظى به بطلا الروايتين. فسعيد، بطل "الثلج الأسود"، مهندس أردني؛

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2007.

* قسم اللغة العربية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

في حوالي الأربعين، رياضي القامة، يرتدي بنطالاً رمادياً مكوياً كحد السيف، وقميصاً أبيض بنصف كم يظهر ذراعيه القويتين السمراوين اللتين يغطيهما شعر أسود كثيف ... أما العينان فلم تشاهد في حياتها مثل اخضرارهما: كأنه قط سيامي [1].

وإلى جانب تفوق سعيد في عمله الهندسي فهو ذو اهتمام بالثقافة والأدب، فعندما يستيقظ في الصباح وشباكه الغربي مفتوح ينساب منه عطر ياسمينة يتذكر فوراً شعر نزار قباني في هذا الموضوع[2]. أما ذكاؤه الحاد وكفاءته العملية فيظهران بشكل خاص من خلال مفاوضاته مع أنداده الأمريكيين في الشركات الأمريكية التي تتعامل معها الشركة الأردنية التي يعمل فيها، حيث يتمكن من التغلب عليهم والحصول على ما يريد، وفوق هذا يضطر بعضهم للاعتذار عندما أشعرته نظرة سعيد أنه قد "تجاوز حدّه" في كيفية التعامل مع سعيد، حيث شعر هؤلاء الأنداد أن سعيداً شخص يتميز بذكائه وقدراته ولا يجوز الاستهانة بقدراته العقلية وحنكته[3]. وكذلك تظهر ثقافة سعيد الواسعة ومعارفه المتنوعة من خلال تحليله للمجتمع الأمريكي وجوانبه الاجتماعية والسياسية المختلفة. وقد كانت الرواية، بشكل عام، معرضاً للحديث عن الجوانب المختلفة للمجتمع الأمريكي، على لسان أكثر من شخصية من شخصيات الرواية، خاصة شخصية سعيد بطل الرواية العربي. فمثلاً، ثمة حديث على لسان جانيت، بطلة الرواية الأمريكية، عن وضع المرأة في المجتمع الأمريكي وما تعانيه من تمييز ضدها مقارنة بالرجل؛ فالنساء تتقاضى أجوراً أقل بكثير مما يتقاضاه الرجال،هذا إضافة إلى ما تعانيه النساء من ضغط نفسي ومحاولات للاستغلال الجنسي في العمل[4]. وينقل لنا سعيد، في موقع آخر، ما يدور بين الأمريكيين من أحاديث عند اجتماعهم في حفل عشاء أو في لقاء اجتماعي عام، حيث تدور غالباً حول مواضيع سطحية كالطقس مثلاً، أو تدور حول موضوعات هامة لكن بتناول سطحي، كالحديث عن الأوضاع الاقتصادية في أمريكا، ووضع الدولار مثلاً، دون أي اهتمام بالعالم الخارجي إذ قلّما يعرف الأمريكي العادي أي شيء ذي بال عن العالم خارج أمريكا[5]. بل إننا نجد سعيداً يبين للقارئ ماذا يأكل الأمريكي في إفطاره ويدهش للكميات الكبيرة من الطعام والشراب التي يتناولها الأمريكي في إفطاره[6].

أما عصام، بطل "البرتقال المر"، فهو طبيب نابه على مشارف الثلاثين، يعمل بعد إكماله التخصص العالي في جراحة القلب، في إحدى مستشفيات مدينة كليفلاند،الأمريكية،وإلى جانب هذا فهو مهتم أشد الاهتمام بالقضايا المختلفة في وطنه خاصة القضايا السياسية، كما يظهر جلياً من رسائله إلى صديقه سالم الصحفي في دمشق. وكذلك يظهر تميز عصام من خلال معرفته الواسعة والعميقة بالتراث العربي خاصة الجانب العلمي منه. ترى ما سبب أن يكون البطلان على هذه

الصفة؟ هل هو شعور النقص عند الكاتب والكاتبة أمام الحضارة الأمريكية فأعدا لذلك بطلين متفوقين في كل شيء ليتمكنا من التفوق على أندادهما من الأمريكيين، وليقدما بذلك الحضارة العربية بصورة متفوقة؟ أهو شعورهما بأن الأمريكان لا يحترمون، أو حتى لا يهتمون، إلا بمن يكون قوياً بل أكثر قوة منهم؟ لقد عرف كل من البطلين أمريكا وحضارتها معرفة المطلع العارف، ويستطيع بذلك أن يبين جوانبها الإيجابية والسلبية.

يبين عصام، بطل "البرتقال المر"، ما تعلمه في أمريكا، وهو معجب بتقدمها العلمي والتكنولوجي. وهو معجب، كذلك، بأشياء أخرى في أمريكا، تتعلق بالأخلاق والعادات واحترام القانون الذي يصون الحريات ويضمنها "تعلمت في هذه البلاد أشياء كثيرة،ومن أهمها تقدير الوقت، والإخلاص للعمل، واحترام الناس جميعاً.. فمازالت للإنسان في هذه البلاد قيمة وكرامة، كما أن حريته مصونة ومقدسة"(7). وكذلك يظهر إعجابه بالأمريكان من خلال مقارنته بين الأمريكان والعرب في مواجهة الموت مثلاً؛ حيث يتحكم الغربيون بعواطفهم ويحكمون العقل بتصرفاتهم بعكس العرب الذين يتضمن سلوكهم في هذا الموقف الكثير من الرياء. إن الأمريكان يحزنون بصمت يدل "على ضبط النفس ورقي خلقي يدعوهم إلى حمل التفجع بكبرياء"(ص55-56) . ويقارن بطل الرواية بين وضع المرأة عند الغربيين، وهو يقصد الأمريكان هنا بلا شك، ووضعها في الثقافة العربية، ليبدي إعجاباً كبيراً بما منحته الحضارة الغربية للمرأة من حيث المعاملة كإنسان سوي من خلال علاقة تخلو من مظاهر التبعية للرجل، في حين، يرى، جعلتها الحضارات الشرقية، والعربية منها، تابعاً للرجل مما زاد في شقائها،تبعاً لذلك(8).

لكن هذا لا يحجب عيني بطل الرواية عن رؤية الجوانب السلبية في المجتمع الأمريكي، سواء أكان ذلك يتعلق بأمور داخلية تخص المجتمع الأمريكي، أم فيما يتعلق بسياسة أمريكا الخارجية وانحيازها الكامل إلى جانب الكيان الصهيوني، وانعكاس هذا على الإعلام الأمريكي وفيه. فيما يتعلق بالجانب الأول، نجد بطل الرواية يدين ما يتعرض له السود الأمريكيون من اضطهاد وظلم وتمييز عنصري، حيث يتألم البطل لهذه التفرقة العنصرية في "بلاد تدّعي الرقي الإنساني، وتفتح صدرها لمعالجة حقوق الإنسان، وتتبجح بصيانتها"(9).

والرواية تشير هنا، كذلك، إلى المعايير المزدوجة في السياسة الأمريكية حيث لا تطبق أمريكا ما تتبجح به أو ما ترتضيه لشعبها، على الشعوب الأخرى، لأن سياستها الخارجية تقوم على قهر هذه الشعوب ونهب خيراتها بعيداً عن كل ما له علاقة بحقوق الإنسان. أما فيما يتعلق بالجانب الثاني من الجوانب السلبية، فيشير بطل الرواية إلى انحياز أمريكا إلى جانب الكيان الصهيوني، كما أشرنا سابقاً، لكنه يعزو هذا الانحياز إلى سيطرة الصهاينة واليهود على مقدرات الأمور في أمريكا، حتى أنه يصف أمريكا بأنها بلد محتل: "أرى أن الصهاينة يحتلون حقاً هذا البلد وأنهم يكتسحون

ميادين العمل والإعلام في أمريكا منذ عشرات السنين"(10)، ويبثون سمومهم وأضاليلهم عند الشعب الأمريكي الذي تصفه الرواية بالساذج الذي يصدق بسهولة كل ما يسمع ومن هنا، ترى الرواية،سبب انحياز السياسة الأمريكية إلى جانب الكيان الصهيوني. ولكن لا بد لنا من التساؤل هنا، هل يعود انحياز السياسة الأمريكية إلى جانب الكيان الصهيوني واتخاذها المواقف المعادية للعرب إلى سذاجة الشعب الأمريكي وإلى جهل الأمريكيين بواقع العرب وتاريخهم، وإلى الصورة المشوهة التي تصلهم عن العرب عن طريق الكيان الصهيوني؟ لا أحد بالطبع ينكر التأثير الكبير للصهاينة في الإعلام الأمريكي، وبناء على ذلك، في تشكيل الرأي العام الأمريكي وهذا بالطبع يؤثر على الإنسان الأمريكي العادي بشكل خاص. لكن ما ننكره هو أن يكون انحياز السياسة الخارجية الأمريكية إلى الجانب الصهيوني راجعاً إلى السذاجة والجهل بواقع العرب وتاريخهم. إن الكاتبة واقعة هنا، على ما يبدو، تحت تأثير الدعاية التي تروج إلى العالم العربي بشكل خاص،أن أمريكا مغلوبة على أمرها في السياسة الخارجية لأن الصهاينة يسيطرون على مقاليد الأمور في الإعلام والاقتصاد، وبذلك لا خيار أمام أمريكا في هذا المجال. إن مثل هذه الأفكار من شأنها أن تبرئ أمريكا من انحيازها إلى الجانب الصهيوني، لأن هذا الانحياز يعود في حقيقة الأمر إلى موقف استعماري أمريكي. ومثل هذه الأفكار تخدم الدوائر الاستعمارية، ولذلك لا تتردد هذه الدوائر في إشاعة مثل هذه الأفكار عند العرب. وهذه الأفكار تخدم كذلك المصالح الصهيونية، حيث تصور أن الجبروت الصهيوني الذي سيطر على مقاليد الأمور في أمريكا وفي مواقع أخرى كثيرة في العالم، لا قبل لأحد بمقاومته، وبذلك ليس أمام العرب إلا الاستسلام.

ومثل بطل "البرتقال المر"، يرى سعيد، بطل "الثلج الأسود"، أن أمريكا منحازة في سياستها إلى جانب الكيان الصهيوني،ويرى كذلك أن مجموعات الضغط الصهيونية لها تأثير كبير في السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. ولكنه يرى أن السبب في ذلك يعود إلى أن "إسرائيل تقوم بدور حامي المصالح الأمريكية .. وأنها تقدم خدمة تتقاضى الأجر عليها بسخاء"(11). أي أنه، بخلاف بطل البرتقال المر، يضع يده على السبب الحقيقي للانحياز الأمريكي للكيان الصهيوني وهو يرى كذلك أن هناك مصلحة متبادلة بين الساسة الأمريكيين ومجموعات الضغط الصهيونية؛ حيث أن" كل سياسي يطمح إلى الوصول لمنصب رئاسي أو عضوية مجلس الشيوخ أو حتى مجلس النواب،عليه أن يقبل المؤخرة الصهيونية"(12)، وذلك بسبب الأصوات الصهيونية التي تقدر بستة ملايين تميل إلى حيث تكون مصلحة إسرائيل. ولهذا يرى بطل الرواية أن الإعلام الأمريكي،التابع بدوره إلى السياسة الرسمية الأمريكية، منحاز إلى الكيان الصهيوني فيقدم عن العرب صورة مشوّهة ومغلوطة للمستهلك الأمريكي العادي لتشكل عنده صورة مغلوطة عن الوضع في الشرق الأوسط. فمثلاً تقدم إسرائيل، في الإعلام الأمريكي، على أنها ضحية للتطرف والهمجية

العربيين، وذلك لأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة وهي فوق هذا الضمانة الوحيدة لمحاربة الشيوعية هناك[13].

ورغم اعتراف سعيد بالتقدم العلمي في أمريكا إلا أنه يرى أن ذلك مسخر للإنفاق على أمورمعينة تستفيد منها الشركات الكبرى التي تسيطر على كل شيء في الحياة الأمريكية، والتي لا يهمها سوى جني الفوائد والأرباح حتى لو أدى ذلك إلى إشعال حروب يذهب ضحيتها آلاف الأمريكيين وملايين الأفراد من الشعوب الأخرى، كما حدث في فيتنام مثلاً [14]. وعلى هذا، لا يهم هذه الشركات أن تؤذي،مادياً أو معنوياً، العديد من الشعوب التي تقع ضحايا لمطامع السياسة الأمريكية التي تسيرها،، كما سلف، الشركات الكبرى، كما هو الحال في موضوع النفط. فأمريكا كما تقول إحدى شخصيات الرواية الأمريكيين، ليست على استعداد لترك النفط العربي،البالغ نصف نفط العالم القابل للتصدير، أن يقع في أيدٍ غير صديقة، لذلك تظل المصالح الأمريكية تحتل الصدارة في الأولويات الأمريكية[15].

وتتناول رواية صنع الله إبراهيم، "اللجنة"، من ضمن ما تناولته، هذه القضية بالذات،أي سيطرة الشركات الأمريكية على الحياة الأمريكية ونفوذها الكبير في الشؤون الداخلية لأمريكا وفي السياسة الخارجية الأمريكية. فهذه الشركات الكبرى هي التي تقرر من يكون رئيساً للولايات المتحدة، كما حدث مع الرئيس جيمي كارتر، مثلاً، الذي أعده رئيس شركة كوكا كولا بالاشتراك مع عدد آخر من رؤساء الشركات الأمريكية الكبرى، ليكون رئيساً منذ زمن بعيد. على هذا يكون تأثير هذه الشركات في ما يسمى بدول العالم الثالث كبيراً جداً، حيث أنها تلعب دوراً حاسماً في اختيار طريقة الحياة في هذه البلدان إضافة إلى اختيار رؤساء وملوك هذه البلدان، والحروب التي تشترك فيها والمعاهدات التي توقعها تلك البلدان[16]. وهذه الشركات تبتدع ثقافة ذات صور ورموز تخدم مصالحها. فالكوكا كولا مثلاً، ابتكرت علبتها الصفيح عندما اشتركت الولايات المتحدة في حرب كوريا، وذلك ليمكن إلقاء هذه العلبة بالمظلات ولتصبح مرتبطة بالبطولة والرجولة الأمريكية، حيث يفتح الجندي العلبة بأسنانه. ثم ارتبطت هذه العلبة بثقافة الاستهلاك التي روجت لها الشركات الأمريكية منذ بدايات العقد السادس من القرن العشرين، حيث يرمي المستهلك بالعلبة بعد استخدامها ليدشن بذلك "عصر الفوارغ"[17]. إن الثقافة الاستهلاكية هنا لا يهمها سوى الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك. وكل شيء في المجتمع يتحول إلى سلعة تفقد قيمتها لتلقى بعد ذلك جانباً إلى النفايات، بما في ذلك الإنسان، حيث يتحول، في ثقافة الاستهلاك، إلى سلعة تأخذ قيمتها من السوق، إذ ليس لها قيمة بحد ذاتها. وسنعود لمناقشة هذه النقطة ثانية في موقع آخر. ولكي تغطي هذه الشركات وجهها القبيح فإنها كثيراً ما تلجأ إلى أردية زائفة حيث تولي اهتماماً للأعمال الخيرية والأنشطة الثقافية، فتقدم مثلاً المنح العديدة للجامعات

وللمتاحف، وتقدم جوائز هامة للإبداع الفني والأدبي وذلك "في نفس الوقت الذي تهتم فيه بابتزاز حفنة دولارات من عمالها"[18].

وتنعكس الثقافة الاستهلاكية هذه في كل مناحي الحياة الأمريكية وخاصة في الإعلام، الذي تسيطر عليه الشركات الكبرى سواء أكان ذلك عن طريق الملكية أم عن طريق الإعلان. فهذا الإعلام يركز على صورة المال كأمر وحيد له قيمة في حياة الإنسان ومن هنا أصبح كل شيء وسيلة لغاية أكبر هي الربح وتسويق السلع، مما أشاع وكرس النظرة المادية للحياة في ذهن الإنسان الأمريكي، وحوله بالتالي إلى شخص مادي لا يقدس سوى المادة والدولار، وفقد جراء ذلك القيم الروحية، مما أفقد حياته التوازن الذي يعطي للحياة طعمها الإنساني والمبرر للعيش. إن أمريكا، على حد قول بطل "البرتقال المر" "بلاد عبدت المال فاستعبدها"[19]. وقد انعكست هذه الثقافة الاستهلاكية في البرامج التي تقدمها وسائل الإعلام للمشاهد الأمريكي ؛ فغلبت السطحية على هذه البرامج،وخلت، في الغالب، من كل ما يمكن أن يجعل عقل الفرد قادراً على التفكير في ما وراء السطح ليكتشف المحرك الحقيقي لما يراه أو يسمعه. وانعكس هذا أيضاً في نشرات الأخبار والبرامج الإخبارية، حيث غلبت عليها السطحية والتبسيط وتشويه صورة الآخر، في كثير من الأحيان، بوعي أو بدون وعي. لذلك يشعر سعيد، بطل "الثلج الأسود"، بالنفور من سطحية البرامج الإخبارية التي تقدم القضايا العالمية للناس من خلال شاشة التلفزيون، لأن:

> التقديم العشوائي السريع والتحليل السطحي للقضايا وربط كل ذلك بالمصالح الأمريكية، يعطي المواطن الأمريكي شعوراً بأن الآخرين هم دوماً ضده وأن ما يجري في العالم لا بد وأنه موجه ضد مصالحه، لذلك يتعمق لديه شعور بالحذر الشديد الذي يبلغ درجة الشك في نوايا الآخرين حتى العداء[20].

ومما يزيد من خطورة الأمر، بل يزيد من تكريسه في عقل الإنسان الأمريكي، سذاجة الأمريكي أو بساطته وتصديقه لما يسمع أو يرى دون مناقشة، خاصة أن نمط الحياة المادية، ويوم العمل الطويل الشاق، واللهاث وراء حلم تحقيق الرفاه الشخصي، لم تترك لهذا الإنسان فرصة التفكير أو البحث والاطلاع، من أجل فهم أفضل لما يرى أو يسمع، وهذا ما جعل هذا الإنسان ضحية سهلة للإعلام بأنواعه المختلفة، مما جعل الأمريكي يبدو للآخرين في أجزاء أخرى من العالم، ساذجاً إلى حد الغفلة. وقد عبرت رواية ليلى الأطرش، وتشرق غرباً، عن هذا أفضل تعبير، عندما وصفت الأمريكيين بأنهم:

> لا يفكرون كثيراً... يبيعهم الناس ماء الشتاء مدّعين أنه من نهر الأردن فيشترونه ويدهنون به أنفسهم.. ويبيعونهم تراباً، ... في قوارير من رمال

أمريكا ويدعون أنه من جبال القدس فيحفظونها في منازلهم للتبرك بها...[21].

وكما سبق ذكره فإن هذه البساطة أو البراءة، جعلت من الإنسان الأمريكي ضحية سهلة للإعلام، خاصة الذي تسيطر عليه الدعاية الصهيونية، حيث تصور العرب بأبشع الصور المنفرة بحيث تخرج الإنسان العربي من حدود الصورة المتعارف عليها للبشر الأسوياء. ولهذا لا بد للقادم من العالم العربي إلى أمريكا أن يصاب، كما تقول الرواية، بصدمة لما يحمله الأمريكيون عن العرب من صور مشوهة بفعل الدعاية الصهيونية حتى ليظن بعض الأمريكيين أن للعربي "ذَنَباً"[22].

إن هذا لا يعني أن كل الأمريكيين ينحازون انحيازاً أعمى إلى جانب الصهاينة والكيان الصهيوني، فهناك أفراد أمريكيون، وإن كانوا قلة نسبياً، يرفضون الانسياق وراء التأييد الأعمى للصهيونية والوقوف ضد العرب وما يخصهم من قضايا. إن هؤلاء الأفراد يتخذون موقفاً متزناً يحكمه الخلق والإنصاف والوقوف مع الحقيقة بعيداً عن الحقد والمواقف المسبقة. وهذا ما يبينه عصام، بطل البرتقال المر، حين واجه عدوانية بعض الأمريكيين والمعاملة السيئة والتشفي بهزيمة العرب، بعد حرب حزيران (1967)، في الجامعة التي يدرس فيها، أو في المستشفى الذي يعمل فيه. ويقول إن الزملاء انقسموا إلى فئتين؛ فئة تؤيد مواقف الحقد العدوانية التي تعرض لها عصام، وإن كان بعضهم يغلف مواقفه بغلاف حضاري زائف، وفئة أخرى ترفض تلك المواقف العدوانية والمعاملة السيئة الناتجة عن الحقد والانحياز المسبق، وقد عبرت هذه الفئة عن موقفها هذا بالوقوف إلى جانب عصام ومعاملته معاملة ناتجة من موقف متزن يتسم بالإنصاف وسعة الأفق والبعد عن الانحياز الأعمى، وكان موقف الدكتور جاكسون يمثل هذه الفئة[23].

وتعكس رواية العراقي مهدي عيسى الصقر، "الشاهدة والزنجي"، صور العنف والعنجهية، في تعامل الأمريكان، وخاصة الجنود خارج أمريكا، مع أهل البلاد التي يحلون فيها. إن الرواية تعالج تجربة فتاة عراقية تعرضت هي نفسها للاعتداء على عفتها من الجنود الأمريكان، لكن تساق، بين الحين والآخر، في رحلة عذاب للإدلاء بشهادة حول مقتل أحد الجنود الأمريكيين على يد جندي أمريكي آخر، من أجل تحديد هوية القاتل. لقد قذف الاعتداء على عفتها بها خارج "كل حدود العفة في تلك الليلة السوداء، ولكنها كانت تشعر بالنفور منهم جميعاً، سوداً وبيضاً"[24]. ولم تكن هي الضحية الوحيدة؛ فقد اقترف الجنود الأمريكيون "حوادث عجيبة لا يصدقها العقل"[25]. وهكذا فإن الاعتداء عليها جعل منها امرأة ساقطة ناقمة، وحطم حياتها الزوجية، وقضى على براءتها. لذلك كانت تنفر من روائح الجنود الأمريكان عندما كانت تجلس في السيارة التي تجلبها للتحقيق معها، لأنها تذكرها بالرائحة التي دوختها ليلة اغتصابها. ولطالما تساءلت

كيف لهم أن يغتصبوها ثم يأخذوها للشهادة ويتصرفوا كأنهم أسياد الدنيا. إن الكاتب يطرح هنا صورة أمريكا التي تتصرف مع سائر أجزاء العالم على أنها هي سيدة هذا العالم وما على الآخرين سوى الخضوع وإلا حاق بهم غضب أمريكا.إنها تتصرف على أنها السيد الذي يحكم خارج القانون، أو حسب قانون تفصله هي على قد مصالحها. لهذا لم تكن هذه الفتاة ترى اختلافاً بين أمريكي أسود أو آخر أبيض، فكلاهما يمثل، عندها، هذه السيطرة والظلم الذي لحق بها. لقد كان المحقق يعاملها بغلظة ويخاطبها بالكلام البذيء الذي لا يليق بإنسان. ولكي تتعرف على هوية القاتل يواصل المحقق الكولونيل، الضغط عليها ويزداد معها فظاظة وغلظة وبذاءة،ولذلك بدأت،شيئاً فشيئاً، تتقبل رأي أمها القاضي بالاعتراف على واحد منهم لتتخلص من رحلة العذاب هذه خاصة أنه، كما تقول الأم، كلهم خنازير، حيث يشاركها المترجم العراقي في هذا الرأي، "إنهم خنازير وليس بينهم من يستحق أدنى قدر من الرحمة"[26]. إنه لأمر ذو دلالة أن يصادق المترجم على رأي الأم، إذ لا بد أن هذا المترجم الذي لازمهم مدة طويلة، وعرف لغتهم، وعمل معهم، قد شهد الكثير من فظائعهم وجرائمهم، حتى وصل إلى هذا الرأي. وكذلك فإن عمل المترجم العراقي مع الأمريكان لم يقض على شعوره وانتمائه الوطنيين، فظل ولاؤه لوطنه ولأهل بلده ولاءً صادقاً. لكن ما لم تقله الرواية صراحة، و يمكن استشفافه من تصرفات الكولونيل المحقق وإصراره الشديد على معرفة القاتل، هو أن القتيل كان جندياً أبيض والتهمة بالقتل تدور حول جندي أسود. ترى هل كان المحقق يصر هذا الإصرار على معرفة هوية القاتل ويعامل هذه الفتاة بهذه القسوة لو كان القاتل والقتيل أبيضين، أو أسودين؟ أو لو كان القاتل أبيض والقتيل أسود؟؟ إن الرواية تشير هنا بشكل غير صريح إلى مشكلة التمييز العنصري التي يعاني منها المجتمع الأمريكي، والتي أشار إليها بطل رواية "البرتقال المر" كما سبقت الإشارة إليه.

إن فكرة اغتصاب المرأة والقضاء على براءتها، كما طرحها الصقر في روايته،تنقلنا إلى فكرة اغتصاب الأرض وحياة الناس الذين يعيشون على تلك الأرض والقضاء على براءتها الأولى، التي يطرحها عبد الرحمن منيف، في الجزء الأول من روايته" مدن الملح"، المعنون بالتيه. فما أن وطئ الأمريكان وادي العيون، القرية الوادعة البريئة، حتى انقلبت حياة الناس والطبيعة رأساً على عقب. لقد كان حضور الأمريكان إلى ذلك المكان لعنة على المكان وعلى ساكنيه. لقد اقتلعت الآلات الأشجار وقلبت الأرض ودكتها،وقضت بذلك على طبيعتها الأولى وعلى عذريتها[27]، مما اضطر أهل الوادي إلى الرحيل إلى مكان غريب عنهم لم يعرفوه من قبل ولم يتعاموا معه تعاملاً إنسانياً، فشعروا بالغربة وبالعدوانية نحو ذلك المكان، كما أحسوا أن المكان يبادلهم نفس الشعور،" رحلوا إلى منازلهم الجديدة في "الحدرة"... وشعروا أنها المرة الأولى التي تبدو لهم الأماكن معادية وفيها هذا القدر من القسوة"[28]. وتلخص يمنى العيد المأساة التي حلت بوادي

العيون والتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي تبعت ذلك،وهي تحولات لا يمكن عكسها بل كانت تحولات تمهد لتحولات أخرى تتلوها:

> فلقد أبيدت وادي العيون. أبيد الطبيعي الذي ميزها: فقدت أشجارها،وبساطة العيش وطيبة الناس وهذا الذي كان يخلق الانسجام والتوافق فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين مكان عيشهم. استبيحت أجواف ينابيعها وتحولت إلى مكان أهم ما فيه أنه جوف يختزن بترول، وأرض يجري عليها حفر آباره[29].

لقد أصبح المكان الجديد جزءاً من الاقتصاد العالمي، وتغيرت تبعاً لذلك العلاقات الاجتماعية في المكان الجديد الذي أصبح محط أنظار أبناء أقطار أخرى بحثاً عن العمل والتجارة، مما خلق صراعاً بين أهل البلد الأصليين وبعض القادمين الجدد من هذه الأقطار، خاصة أولئك الذين صاروا طرفاً في هذا الصراع نيابة عن الأمريكان في أحيان كثيرة،حيث نأى الأمريكان بأنفسهم عن المواجهة المباشرة مع أبناء البلد، وذلك ربما للفجوة الحضارية بين الطرفين، ولعدم رغبتهم في تحمل مسؤولية ما قد ينشأ عن المواجهة المباشرة، فاصطنعوا موقف المحايد وتركوا أمور المواجهة والتعامل مع أبناء البلد، ومع العمال العرب، لأعوانهم من أبناء البلد المحليين أو من أبناء الأقطار العربية الأخرى القادمين للعمل هناك. لكن هذه الحيلة لم تنطل على أبناء البلد خاصة الذين كانوا يكابدون العيش في ظل ذلك الوضع، فأدركوا بسرعة أن الأمريكان هم وراء ما يحدث، وأنهم المحركون الفعليون في كل أمر، وأن أتباعهم المحليين ليسوا أكثر من أذناب. وقد عبرت الرواية عن هذا على لسان أكثر من شخصية وفي مواقع عديدة؛ "أولاد الحرام الأمريكان.. إذا دخلنوا عمونا وإذا حننوا ما أطعمونا"[30]، أو "الأمريكان أولاد الحرام ما من وراهم إلا التعب ووجع الرأس، هم باللحم وجماعتنا على العظام ما تحصل"[31]. أو "الأمريكان هم أصل العلة وأصل البلية"[32]، وأيضاً في المعنى ذاته "إن جاء أصحاب العيون الزرق والأسنان الفرق لا بد أن يفنى وادي العيون ويهلك البشر"[33]، ولا حاجة للتأكيد على أن المعني بأصحاب العيون الزرق والأسنان الفرق هم الأمريكان،وأن هذه الصفة نذير سوء حيث من كانت هذه صفته لا يكون أهلاً للثقة ولا يؤمن جانبه عند العرب، وخاصة في البادية. وقد أطلق أهل وادي العيون على الأمريكان أسماء عديدة تدل على الغموض الذي يشوب نظرتهم للأمريكان، وعلى جهلهم بحقيقة مراميهم،وتوجسهم من أن أمراً سيئاً لا بد أن يحدث بسبب وجود هؤلاء الأمريكان في تلك المنطقة . ومن ناحية أخرى، تدل هذه الأسماء على تخلف أهل الوادي وجهلهم، حيث أنها أسماء مرتبطة بالغيبيات، وكأن أهل الوادي يعزون ما يمكن أن يحدث لهم من مصائب إلى أمور غيبية،وهكذا أطلقوا عليهم أسماء مثل "الجن" و "الكفار" و "الشياطين" و"الغرباء" و "الجماعة"، أي ليس ثمة تسمية محددة بين هذه التسميات، تحدد هوية هؤلاء القادمين الجدد.

أما لفظة الأمريكان فقد وردت صريحة على لسان الراوي وليس على لسان أهل الوادي، وبذلك يكون الراوي هو من عرف هويتهم وحددها، في حين أنهم كانوا مجرد غرباء عند أهل وادي العيون.

وبسبب المصالح المادية، يظهر الصراع الاجتماعي ثم يشتد؛ حيث يستغل الأمريكان، وأعوانهم من العرب، العمال العرب وغيرهم من الفقراء. إن التفاوت في الظروف المعيشية والمادية بين العمال العرب من جهة، والأمريكان وأتباعهم العرب من جهة أخرى جعلت العمال العرب وأمثالهم من الفقراء وأصحاب المهن البائسة يتساءلون "لماذا يعيشون هم هكذا ويعيش الأمريكيون بشكل آخر؟ ولماذا يجبرهم الأمريكيون على القيام بأعمال لا يفكر واحد منهم بالقيام بها؟ والأمير هل هو أمير لهم، يدافع عنهم، ويحميهم أم أمير للأميركان ؟ "[34]. لكن الأمريكان واجهوا مطالب العمال وإضراباتهم بالفصل والتهديد، وبعدم الاستماع إلى مطالبهم والاعتراف بمشروعيتها، بل بالقتل أحياناً، ولم يعترفوا بالبعد الاجتماعي في صراعهم مع العمال العرب وغيرهم من الفقراء،لأن ذلك يحملهم مسؤولية تصحيح الخلل الذي يكمن وراء ذلك الصراع الاجتماعي. لذلك عزوا ذلك الصراع إلى أسباب حضارية وصاحب ذلك نظرتهم الدونية والاحتقار للعمال العرب وأمثالهم من الفقراء. وتعج الرواية بالعبارات والتصريحات التي تعبر عن ذلك، من مثل ما يقوله سنكلر الأمريكي لزميله عن العرب "إنهم مثل الحيوانات يدفع بعضهم بعضاً ويتحركون بهذه الطريقة البدائية تعبيراً عن الفرح. فتصور"[35]. أو "هؤلاء البدو لا تنفع معهم إلا العصا"،كما يقول نعيم أحد أتباع الأمريكان[36].

إن ما نريد تأكيده هنا هو أن الصراع بين العمال العرب وغيرهم من الفقراء وبين الأمريكان وأتباعهم لم يكن ناتجاً عن أسباب حضارية أو ثقافية، بل عن أسباب اجتماعية.لكنا نؤكد أيضا على وجود الهوة الحضارية الكبيرة بين أهل وادي العيون وبين الأمريكان،وهذا واضح،كما تقول يمنى العيد[37]، من الدهشة والحيرة والارتباك،التي كانت تلف الناس وهم ينظرون إلى المعدات التي كانت تصل، والآلات التي كانت تعمل في اقتلاع الأشجار، وحفر الآبار، وإقامة المنشآت. فقد كانت هذه في عين أهل الوادي "كائنات حديدية ضخمة تتحرك" و "كتل صفراء ضخمة" و "مخلوقات عجيبة"[38]. والباخرة التي وقفت بعيداً عن الشاطئ سموها "البلية"[39]، والرجل الذي كان يعمل على توجيه الرافعة كان في نظرهم "قوة خارقة" والنسوة اللاتي أتين للترفيه عن الأمريكان كن نسوة حملتهن "باخرة الشيطان"[40]، والرجال الذين كانوا يعملون داخل الآلات، كانوا عندهم "عفاريت"[41]. وكتب التاريخ التي أتى بها الأمريكان كانت عند أهل الوادي "كتب سحر سيقضي بها هؤلاء على حرّان بأهلها"[42]. وحتى الأمير الذي كان كما تقول يمنى العيد،

أمل الناس وملجأهم كان أكثرهم دهشة وشعوراً بالصدمة، لقد كان "أول من رأى المنظار، وسمع الراديو، وتكلم بالهاتف،وركب السيارة، فكان أكثرهم حيرة ودهشة، وكان يردد:"العفاريت والمعاصي والمصائب التي حملها الأمريكان"[43].

لقد استغل الأمريكان أهل وادي العيون ودمروا أرضهم ولم يعوضوهم شيئاً عن ذلك. إننا هنا إزاء لقاء حضاري بين طرفين غير متكافئين . لقد كان الأمريكان الطرف الأقوى والمهيمن بسبب تفوقه الحضاري والتكنولوجي المتمثل بالمعدات والآلات التي أحضرها لتحقيق المهمة التي أتى لأجلها، إضافة إلى الخطط والأفكار المعدة مسبقاً لما يريد أن يحققه، في حين كان أهل وادي العيون لا يعون ما يدور حولهم وعاجزين عن التعامل الواعي مع ما يجري لهم وحولهم،لذلك لم يكن ثمة إمكانية للحوار بين الطرفين، لأن الحوار يحتاج إلى طرفين متكافئين. إن هذا ليذكرنا بما قاله إدوارد سعيد عن اللقاء الحضاري بين الفرنسيين والمصريين خلال حملة نابليون على مصر عام 1798، كما تبرزه الكتابات التي نتجت عن ذلك اللقاء، عند كل من الجانبين. فعند الجانب الفرنسي ظهر كتاب "وصف مصر"، المكون من أربعة وعشرين جزءاً من عمل العلماء الذين اصطحبهم نابليون معه إلى مصر، وهو عمل ضخم متماسك وشامل لكل جوانب الحياة والتاريخ في مصر، في حين لم يظهر عند الجانب المصري، عن هذه الحملة، سوى مجلد صغير قام بتأليفه عبد الرحمن الجبرتي وكان أحد رجال الدين ومن الأعيان أيضاً[44]. وقد غلب على كتاب الجبرتي طابع الاندهاش والاستغراب لما شاهده من سلوك الفرنسيين أو لما كانوا يقومون به من أعمال أو أمور غريبة على البيئة المصرية كعرضهم للمسرحيات التي كان يحضرها الرجال والنساء مثلاً.

وتظهر المرأة الأمريكية شخصية رئيسية في ثلاث روايات هي "الثلج الأسود"،و"مسك الغزال"، و"نيويورك80"، في حين تظهر بشكل خافت لا يخدم غرضنا في هذا البحث، أو لا تظهر أبداً، في بقية الروايات التي تعالجها هذه الدراسة. لذلك سنقتصر حديثنا في هذا المقام على الروايات الثلاث المذكورة أعلاه.

جانيت، الشخصية الرئيسية الثانية، إلى جانب سعيد، في رواية "الثلج الأسود"، مهندسة أمريكية تأتي إلى الأردن، ممثلة لشركة مقاولات أمريكية، للإشراف على تنفيذ أحد مشاريع الشركة. ويقود هذا إلى تعرفها إلى سعيد المهندس الأردني الذي يعمل في شركة منافسة لشركة جانيت،وهو الشخصية الرئيسية الأخرى في الرواية كما سبق ذكره. ويمكن دراسة شخصية جانيت بصفتها الفردية فقط،أي بوصفها مجرد شخصية في رواية لا تمثل إلا ذاتها . كما يمكن دراستها بوصفها شخصية نموذج تمثل هوية معينة، أي تمثل الجانب الأمريكي في هذه الحالة. لقد جعلها الكاتب، في مواقع عديدة،شخصية نمطية لا تختلف عن معظم النساء الأمريكيات، خاصة في

نشأتها الأولى وبداية ممارستها الجنس، والصورة المغلوطة والمشوشة التي كانت تحملها عن العرب قبل أن تأتي إلى الأردن. ولقد تحققت من خطأ تلك الصورة عندما رأت النساء العربيات الأردنيات يرتدين ملابس السباحة ويشاركن الرجال والنساء من جنسيات مختلفة، في حوض السباحة، حيث شعرت أن هذا يتناقض مع كل ما قرأته أو سمعته عن "أن النساء هنا يرتدين العباءات السوداء التي تغطي أجسادهن كاملة ولا يظهرن على الرجال"[45]. كذلك تشعرجانيت بالمفاجأة حين ترى جِد الأردنيين في العمل، إذ إن هذا عكس "ما قيل لي عن قصص "ياللا بكرة" و "في المشمش"، حتى قيلولة بعد الظهر المشهورة بها المنطقة فإنكم لا تمارسونها"[46]. ولعل سبب المفاجأة هنا راجع للأفكار المسبقة عن شعوب هذه المنطقة، ولا يخفى أن في استغرابها هذا الجد في العمل نوعاً من النظرة الدونية؛ فهي، كما يبدو، لا تتوقع من العرب أن يكونوا مثل الغربيين أو اليابانيين في الجد والإخلاص في العمل" تلعن في سرها هؤلاء الأردنيين المدمنين على العمل، من يعتقدون أنفسهم ؟ يابان الشرق الأوسط؟"[47]. ومن ناحية أخرى، نرى أن الكاتب قد ضخم صورة إدمان الأردنيين على العمل وجدّهم وإخلاصهم في ذلك،ولعل هذا راجع إلى أن الكاتب أراد أن يبرز الجانب العربي أو الأردني هنا،بشكل لا يقل كفاءة عن الجانب الأمريكي،إن لم يكن يتفوق عليهم في ذلك. وهذا ما فعله الكاتب أيضاً عندما صنع شخصية سعيد،كما بينا سابقاً.

ويبدو أن جانيت قد أتت وفي ذهنها البحث عن صيد ثمين، عن رجل شرقي يناسب أحلامها، ولذلك جعلت من نفسها أيضاً صيداً سهلاً. وما أن رأت سعيداً واقفاً على مسافة منها حتى ثارت مشاعرها وأعجبها منظره الرياضي وقوامه الرشيق،وتمنت في نفسها أن تلتقي به رغم أنها عرفت أنه متزوج. وكما يبدو، فإنها تبحث عن إشباع نزوة جسدية؛ فعندما قارنت بين سعيد وبين روبرت صديقها في أمريكا، وجدت أنه "لا يساوي شيئاً أمام وقار روبرت وذكائه المتوقد"[48]، إنها طبعاً الصورة التقليدية التي ترى الشرقي مجرد عاطفة وجسد بينما يمثل الغربي العقل والذكاء. ولكن ما أن يصافحها سعيد حتى يتلبسها الاضطراب وتصيبها اللعثمة "ولم تكن متأكدة أن خديها لم تشتعل بهما النيران"[49]. من الواضح أنها وجدت هنا الصيد المثالي الذي هيأت نفسها مسبقاً له. ولعل شعورها بالوحدة في مجتمع غريب لا تعرف أحداً فيه، قد دفعها للوقوع في أول علاقة مناسبة، وهكذا وجدت نفسها توافق بسرعة على دعوة سعيد لها إلى العشاء، وكانت قبل هذا قد أشعرت سعيداً بأملها في تكرار لقائهما بعد أن تمشيا ساعات في الليل في أحد أحياء عمان؛إنها ترغب في تكرار اللقاء لأن سعيداً "يعرف كيف يسعد امرأة تشعر بالوحدة.."[50]. إنها مندفعة نحو هذه العلاقة لأنها كما أشرنا، مهيأة مسبقاً للوقوع في مثل هذه العلاقة التي لا يبدو من معالمها سوى أنها علاقة جسدية لإبعاد الملل والشعور بالوحدة" أعتقد

أنك تحاول أن تغويني. وهل نجحت؟- أكثر مما تظن"[51]، "سعيد،أظن أني أحبك، وإن كان هذا مستحيلاً، فأنا لا أكاد أعرفك"[52]. إنها بلا شك تبحث عن الإثارة، وقد رأت في سعيد "الشخص الأكثر إثارة الذي قابلته في حياتي"[53]. لذلك لا يهمها، رغم حيرتها، إن كانت علاقتها بسعيد ستتطور وتدوم أم تبقى مجرد نزوة. ولم تكن مشاعر سعيد نحو هذه العلاقة تختلف كثيراً عن مشاعر جانيت:" أنا أيضاً [يقول سعيد] مدفوع نحو هذه العلاقة بدافع الشهوة الجسدية لا غير"[54]. إنها إذن علاقة أساسها الشهوة والشبق الجنسي والبحث عن الإثارة عند الطرفين، فهل لمثل هذه العلاقة حظ من الاستمرارية؟ تخبرنا الرواية أن هذه العلاقة كادت أن تقضي على حياتيهما معاً. لقد تعرضا لحادث سيارة أثناء عودتهما من رحلة إلى العقبة استمتعا خلالها أيما متعة. لقد أوشكت جانيت أن تفقد بسبب الحادث، القدرة على الوقوف والمشي، لكنا نعرف أنها بعد رجوعها إلى أمريكا، ورجوعها كذلك إلى علاقتها القديمة مع صديقها الأمريكي روبرت،بدأت تشعر ببوادر التحسن والشفاء التي بدأ ت تظهر على جسدها. أما سعيد فنعرف أنه في نهاية الرواية يعود إلى أسرته ليبدأ حياته من جديد وكأنهما كلاهما - سعيد وجانيت - قد أفاقا من حلم. نعم هذا ما تقوله جانيت عن علاقتهما السابقة في رسالة إلى سعيد بعد عودتها إلى نيويورك بعد حادث السيارة "سعيد، لا شيء سيقوى على أخذ ما كان بيننا، فقد كان حلماً، والحلم لا يؤخذ"[55]. هل هذه إذن هي العلاقات العربية- الأمريكية القائمة على أفكار وتصورات مسبقة مغلوطة، والتي تحكمها النزوة والعاطفة المتغيرة حسب الظروف، ولذلك فهي علاقة لا تقوم على أسس ثابتة من المنطق والعقلانية ومعرفة الآخر معرفة حقيقية؟

ولا تختلف سوزان، بطلة رواية حنان الشيخ، "مسك الغزال"، عن جانيت، من حيث أنها هي أيضاً مهيأة مسبقاً، بل تبحث، للوقوع في علاقة جنسية مع أول رجل مناسب تجده في هذا البلد الصحراوي الغريب. وهكذا نجدها تستسلم لإغواء أحمد حتى قبل أن تعرف عنه أي شيء بل ولا حتى اسمه. لقد وجدت نفسها وحيدة مع هذا الرجل الغريب بعد ليلة صاخبة، وعندما وضع الرجل الغريب يده على يدها ليقبلها ويقبل عنقها شعرت "بانتفاضة خفيفة عند فخذي،تراجعت، ولم أستطع رغم توتري إلا أن أشعر بدفء أسمر. استسلمت لقبلته ثم ليديه، ثم لجسمه وغمرتني سعادة عظيمة،رغم تشوشي"[56]. بعد انقطاع علاقتها بأحمد هذا، عادت للشعور بالفراغ، فأخذت تبحث عن أي علاقة أخرى مناسبة لها، لقد أصبحت تشعر بالحاجة إلى الخروج من البيت والتحدث مع أي أحد تصادفه. ولذا، ما أن وجدت معاذاً، أحد أبناء البلد، حتى تمنت الاختلاء به في تلك اللحظة، وعندما هجرها معاذ أخذت تبحث عن رجل آخر،وازدادت جرأتها، لتصل حد المبادرة بل التحرش بالرجال" وفي المكتبة وجدتني أتحرش برجل، شجعتني لهجته الأمريكية ووسامته.. وابتدأت أخبره عن معاذ وهجره لي... خطفت البطاقة، أخفيتها بيدي، ثم أضعها في

حقيبتي وأنا أتنفس براحة وسعادة"[57]. إنها امرأة تبحث عن علاقة جسدية تقتل بها الفراغ الذي تعانيه،خاصة بعد أن وصلت حياتها الزوجية حد الجمود بل الموت.وكما يبدو فإنها لم تكن ترى في الرجال العرب العديدين اللذين تعاشرهم سوى سلع أو أدوات لإشباع رغباتها وإرضاء لشعور الأنا عندها، وإشعارها بأنها ما تزال امرأة يرغبها الرجال ولم تستنفد بعد، وهو الشعور الذي كانت تخشاه أكثر من أي شيء آخر، كما سيتضح فيما بعد. وهكذا كانت ترى في غزل واهتمام معاذ بها تسلية تقتل رتابة الأيام[58]. لقد كان معاذ مصدر إشباع لرغائبها الجسدية والنفسية، وكذلك رغائبها المادية. إن سوزان قد جاءت، أصلاً، إلى هذا البلد العربي الصحراوي بتشجيع من صديقتها باربرا التي طافت في أرجاء عديدة من العالم. وقد أخبرتها باربرا بأنها ستعيش في ذلك البلد الصحراوي كما في كتاب "ألف ليلة وليلة"، وأخبرتها كذلك عن القصور والأموال والأقمشة المرصعة بالمجوهرات. وأخبرتها باربرا كذلك بأن عمر الشريف والإمبراطورة ثريا من تلك البلاد أيضاً . وهكذا أتت سوزان مدفوعة بأفكار وخيالات مستمدة من الحكايات وبرغبة لجني الثراء بسهولة، وبدافع البحث عن مغامرات غرائبية،وكما يبدو فقد تحقق لها الكثير مما أتت لأجله. لقد حلت في بيئة تعطي أهمية قصوى لكل ما هو أو من هو أمريكي "شيئاً فشيئاً أخذت أفهم أني ضيفة مهمة من بلد نيكسون، من بلد الفرن الذي ينظف نفسه بنفسه "شعوري بأهميتي بدأ يزداد، كأن شعري الأصفر أصبح ذهباً، وكلامي كأنه الدرر"[59]. وقد مكنها هذا كما سلف،من إقامة علاقات مع العديد من الرجال العرب، الذين وجدوا فيها أيضاً صيداً سهلاً وثميناً يشبعون من خلاله ظمأهم الجنسي، أو يقتلون من خلاله رتابة حياتهم الزوجية، مما زاد في نفوذها في هذا البلد" لا شيء يستعصي علي في هذا البلد. كأني أملكه.. كنت أصل إلى ما أريده، أحياناً عبر الهاتف"[60]. وعلى هذا كانت علاقاتها تقوم على دوافع انتهازية تخلو من أي شعور إنساني نحو الآخرين. فعندما رأت الهدايا التي أحضرها معاذ معه من سريلانكا، لم يكن همها سوى الحصول على أكبر عدد من الهدايا الثمينة، إشباعاً لحلمها القديم الذي أتت لأجله؛ فكانت تتوسل بالحيل المختلفة للحصول على أكبر عدد من تلك الهدايا؛ كأن تتظاهر مثلاً بأن الخاتم لا يخرج من إصبعها، أو تبدي إعجابها بخاتم بان الذهب به أكثر من الخواتم الأخرى، أو تحسد فاطمة زوجة معاذ، على كل هذه الهدايا، وغيرها من الحيل، حتى استطاعت الحصول على أكبر عدد من الهدايا،التي وضعتها في حقيبة لتتأملها في البيت عن كثب[61]. لذلك عندما علمت بوجوب مغادرة هذا البلد الصحراوي والعودة إلى أمريكا، بسبب انتهاء أعمال الشركة التي يعمل فيها زوجها ديفيد بسبب إفلاسها، وقع الأمر عليها وقوع الصاعقة . لقد كانت في هذا البلد محط أنظار الجميع، والآن أصبحت على وشك أن تفقد كل ذلك، لتعود إلى بلدها أمريكا مجرد "نقطة بين الملايين"[62]. إن أكثر ما يخيفها من العودة إلى أمريكا هو أن لا تجد أحداً يهتم بها حيث أنها

تجاوزت الأربعين وتعاني من السمنة و"لن يدير أحد رقم تلفونها سوى من يخطئ"[63]. إنها لا شك تشعر أن عالمها يتحطم أمام ناظريها، ولذلك ستحاول بشتى الوسائل البقاء في هذا البلد لتتجنب العودة إلى أمريكا. ستحاول الاستنجاد بكل من تظن أن بإمكانه مساعدتها في هذا الأمر. لذلك اتصلت "بكل من كانوا يلهثون للوصول إليها وإشباع نهمهم... [الذين] حققوا لها حلم ألف "ليلة وليلة"، والذين يقيمون الحفلات لأجلها، لكن الجميع تهرب منها واستحالوا طلبها في البقاء. ولعل هذا ما زاد من شعورها بالإحباط الشديد والضياع.إنها مستعدة لفعل أي شيء للبقاء هنا حتى لو أصبحت زوجة ثانية لمعاذ وأعلنت إسلامها.من الواضح أن استعدادها لإشهار إسلامها، وأن تصبح زوجة لمعاذ، ليس ناتجاً عن دافع عقدي أو شعور إنساني بالحب نحو معاذ. لقد أفقدها تحطم عالمها الصواب والرؤية الصحيحة. إنها ترى نفسها على أنها سلعة ولم تعد ملائمة لحاجات السوق. لم تكن ترى نفسها إلا جسداً تحقق من خلاله أهدافها، لذلك كانت تحاول دائماً إخفاء بطنها وتجعداته بيدها. والآن تخشى أن هذا الجسد لم يعد قادراً على تسويقها، خاصة في بلدها أمريكا: " ماذا تفعل امرأة أربعينية وحيدة في بلد يعج بغيرها... من ينظر إلى امرأة سمينة"[64]. إنه، بلا شك، الوعي المتشيء الذي يجعل الإنسان يرى كل ما حوله، خاصة العلاقات الإنسانية، على أنها سلع مادية أو أشياء تحدد قيمتها حاجات السوق،وأن لا شيء له قيمة بحد ذاته بما في ذلك الإنسان . وهكذا تصبح العلاقات الإنسانية علاقات بين سلع أو أشياء. وظاهرة التشيؤ هي بالطبع إحدى ظواهر المجتمع الرأسمالي[65] . لقد كانت سوزان قبل حضورها إلى البلد الصحراوي ربة بيت أمريكية عادية تغسل حفاظات أولادها، وتتفرج على المسلسلات وتقرأ الكتب الغرامية وتشرب البيبسي كولا بتواصل. حتى فتور علاقتها الزوجية لم تحاول أن تجد له سبباً إذ اعتقدت أن ذلك أمر عادي مفروغ منه يحدث بين كل المتزوجين. إنها، حقاً، لا تملك وعياً ذاتياً يمكنها من إدراك ما حولها وتفسيره وفهم العوامل الخفية وراء السطح في أي ظاهر في المجتمع. إن وعيها لا يتجاوز السطح من الأمور،وهذا ما طبع سلوكها في هذه الرواية.

أما رواية يوسف إدريس،" نيويورك 80"، فتقدم نموذجاً مختلفاً كل الاختلاف،للمرأة الأمريكية . إن الرواية تقوم على حوار بين مثقف عربي وامرأة أمريكية مومس في مدينة نيويورك. ويكشف الحوار عن أن هذه المومس ليست كغيرها من المومسات اللواتي كل همهن الحصول على المردود المادي مقابل ما يقدمنه من جنس.إنها ترى نفسها مصلحة اجتماعية ونفسية بل منقذة للعالم. وبعد ذلك نرى هذه المومس وقد كشفت عن جانب آخر من هويتها: إنها معالجة نفسية في إحدى أكبر مستشفيات أمريكا وتحمل درجة الدكتوراه. إن الحوار الذي يجري بين الاثنين حوار لا يشبه أي حوار يمكن أن يقع بين امرأة مومس ورجل. إنه حوار فكري وفلسفي من بدايته حتى نهايته. وعليه لا يمكن فهم الرواية إلا على أنها عمل يقوم على المجاز (Allegory). لقد جعل

الكاتب هذه المومس تمثل القيم المادية وتدافع عنها، مبررة سيطرة هذه القيم على الإنسان لأن هذا الإنسان، حسب رأيها، يبحث دائماً عما يشبع له حاجاته المادية. وجعل الكاتب الرجل، بطل الرواية الثاني، ممثلاً للقيم الروحية والفكرية ويدافع عنها، لأنها هي ما يسمو بالإنسان عن المستوى الحيواني. وعلى هذا الأساس فقط يمكننا فهم الحوار التالي الذي يغلب عليه الطابع الفلسفي:

هو: أنت تكذبين على نفسك. إن في إصبعك خاتما يعول عائلة بأكملها في بلادي لثلاثة أعوام. أنت لست جائعة لهذه الدرجة.

هي: لأن جوعكم هو أبسط أنوع الجوع، جوع الحيوان إلى الطعام. ولكن جوعي هو جوع الإنسان إلى حياة الإنسان. جوع الحياة بمتعة... إنه جوع مراكز عليا وخيالات وأحلام، جوع النوازع العليا يا أستاذ.

هو: ومن أجل تلك النوازع تنحطين بجسدك إلى ما هو أدنى من مراتب الحيوان (66).

إن الكاتب يتخذ من المرأة المومس هنا رمزاً أو ممثلاً لمدينة نيويورك أو لأمريكا بشكل عام. إنه يرى فيها بلداً تسيطر عليه القيم المادية ممثلة بالدولار. والكاتب يجعل المرأة المومس تتفق مع الرجل في هذا الرأي؛ فهي تعترف أنها على استعداد لأن تفعل أي شيء مقابل النقود لأن حياة الترف حلم لكل امرأة مسحوقة وأي رجل في نيويورك(67). ومن هنا كانت الرواية معرضاً لهجاء الكاتب لنيويورك ولإدانته لها. إنها "غابة موحشة حديثة.. الإنسان فيها ضئيل، حيث الغنى فاحش والفقر فاحش أيضاً"(68). إنها مدينة تنتشر فيها الجريمة ولا يأمن الإنسان فيها على حياته، ولا يجرؤ على فتح الباب لطارق(69).

ليست " نيويورك 80"، هي الرواية الوحيدة التي فيها إدانة لنيويورك أو تصوير لبعض الجوانب من الحياة في نيويورك. فلقد عرضت رواية " الثلج الأسود"، لجوانب عديدة للحياة في نيويورك، على لسان سعيد، بطل الرواية. إنها، كما يقول، تركيبة وخليط عجيب من الأعراق والأجناس والملامح المختلفة والمتنافرة أحياناً. والسمة الغالبة- كما تعرضها الرواية – على سكان نيويورك هي القسوة التي تغلف وجوه العديد من مدمني الخمر والمخدرات وسيدات الأكياس، حيث ينام الجميع على الأرصفة.بعض هؤلاء يتسول وبعضهم عاطل يتقاضى دريهمات من الضمان الاجتماعي، وبعضهم يروج المخدرات. وهم ينتهون في أغلب الحالات نهايات دموية؛حيث تقتلهم عصابات المراهقين والمنحرفين لأتفه الأسباب، أو أنهم هم أنفسهم يذبح بعضهم بعضاً بالزجاجات

المكسورة، ثم تمر سيارة مشرحة البلدية صباحاً لتحمل الجثث ولا أحد يتساءل عن سبب موت هؤلاء الناس(70). أما جانيت، بطلة الرواية الأمريكية، فقد كانت نظرتها لمدينة نيويورك تخلو من الشجب والإدانة اللتين رأيناهما عند سعيد رغم أنها تبين سلبيات كثيرة في مدينة نيويورك، تقول جانيت:

> إن لنيويورك أكثر من وجه واحد، فهي جميلة، قاسية، موحشة، مسلية، هادئة، صاخبة، مخيفة. فنيويورك تلبس كل الأقنعة وكل الوجوه بسهولة تامة... أغلب الناس لا يعرفون بعضهم وارتفاع الجريمة في المدينة يجعلهم حذرين من الغرباء(71). هنا يوجد أناس يقتلونك من أجل ربع دولار(72).

لكن سعيداً، بطل الرواية، لا يغفل عن إبراز الجانب الآخر الإيجابي لنيويورك،خاصة في مجال الثقافة والمسرح. فشارع برودواي يغص بالمسارح التي يتمنى أن يعمل فيها أشهر نجوم أمريكا والعالم الغربي .

ولا تختلف رواية البرتقال المر، في هذا الأمر، عن سابقتيها. لقد أدان عصام بطل الرواية، نيويورك بشدة ووصفها بأنها عدوة لكل ما هو إنساني لأنها تخنق الإنسان وتقضي على العنصر الطبيعي في الحياة. في نيويورك، كما يمكن أن نفهم من رأي عصام، يتضاءل الإنسان أمام مظاهر المدينة الرأسمالية ممثلة بناطحات السحاب. وهكذا فالإنسان في نيويورك ليس "إلا نملة متطفلة، معرضة للسحق في كل وقت"(73). وتؤكد الرواية أن الإحصاءات أثبتت ارتفاع نسبة الأمراض الخبيثة والأمراض العصبية في الولايات المتحدة بمقدار كبير في النصف الثاني من القرن العشرين بسبب نمط الحياة في المدن الصناعية(74).

إن الوصف الذي نجده في الرواية العربية لمدينة نيويورك، والإدانة الشديد لها،لا يختلفان عما نجده في الشعر العربي الحديث، أو حتى في العديد من القصائد لشعراء عالميين غير عرب، حيث نجد الإدانة الصارخة لنيويورك التي أصبحت غولاً أو وحشاً فاغراً فاه ينهش الإنسان وكل ما هو إنساني.

لقد كانت صورة أمريكا والأمريكان،في الروايات العربية موضع الدرس، صورة سلبية في الكثير من جوانبها، فما الذي يجعل الكاتب العربي يرسم مثل هذه الصورة؟ ثمة عوامل عديدة تخطر على البال.فمما لا شك فيه أن انحياز السياسة الأمريكية إلى جانب إسرائيل ودعمها بالمال والسلاح والمواقف السياسية، خاصة بعد العدوان الإسرائيلي عام 1967 وإلى هذا اليوم، سبب رئيسي لهذه الظاهرة. وكذلك ثمة صورة سلبية لأمريكا ولمدينة نيويورك بشكل خاص، في العديد من الأعمال الأدبية والفنية عند أدباء وفنانين من مختلف أرجاء العالم، بما فيها أمريكا نفسها،

مما أثر على الكاتب العربي في هذا الشأن. وفوق هذا ما تنقله وسائل الإعلام المختلفة عما يجري في شوارع أمريكا، ونيويورك بشكل خاص، من أعمال السلب والسطو والقتل والاغتصاب وغير ذلك،لا بد أنه أثر في نوع الصورة التي يمكن أن يرسمها الكاتب العربي لأمريكا وللأمريكان. هذا إلى جانب ما تكرّس في أصقاع مختلفة من العالم من صورة أمريكا وهي تقف دائماً إلى جانب المعتدين والمستغلين والحكام الفاسدين إذا كانوا من حلفائها،ووقوفها الدائم في وجه حركات الشعوب الطامحة إلى الحرية والتقدم، حيث لم يكن هذا بعيداً عن ذهن الكاتب العربي[75].

The Image of America and Americans in Arabic Novels

Mohammad Khazali, *Arabic Dept ., Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This paper studies the image of America and Americans in eight Arabic novels from different Arab countries.

This theme is treated in one or two of these novels as a secondary theme, while it is a central one in the rest. American characters are studied here both as individual characters in literary works, and as typical characters representing a collective identity. In most cases the image of America and Americans in these novels is negative, due, it seems, to many factors, chief among them is the biased position taken by the United States in support of the Zionist entity, as well as its position against the inspirations of many poeples for freedom and progress. These Arabic works share this negative image for America, with many works by writers from different parts of the world.

قدم البحث للنشر في 2006/9/3 وقبل في 2007/3/11

الهوامش

(1) محمد أزوقة، **الثلج الاسود**، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1988، ص11
(2) المرجع السابق، ص158.
(3) المرجع السابق، ص101
(4) المرجع السابق، ص17
(5) المرجع السابق، ص133
(6) المرجع السابق، ص128
(7) سلمى الحفار الكزبري، **البرتقال المر**، دار النهار للنشر، بيروت،1974، ص10
(8) المرجع السابق، ص71
(9) المرجع السابق، ص10
(10) المرجع السابق، ص26 وص105
(11) محمد أزوقة، ص36
(12) المرجع السابق، ص36
(13) المرجع السابق، ص136
(14) المرجع السابق، ص ص 122-123
(15) المرجع السابق، ص133
(16) صنع الله ابراهيم، **اللجنة**، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط2، 1989، ص24
(17) المرجع السابق، ص23
(18) المرجع السابق، ص115
(19) سلمى الحفار الكزبري، ص80
(20) محمد أزوقة ،ص10
(21) ليلى الأطرش، **و تشرق غرباً**، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت، 1988، ص24
(22) المرجع السابق، ص ص 76-77
(23) سلمى الحفار الكزبري، ص23
(24) مهدي عيسى الصقر، **الشاهدة و الزنجي**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1987، ص24

(25) المرجع السابق، ص16
(26) المرجع السابق، ص113
(27) عبد الرحمن منيف، **مدن الملح** " التيه " المؤسسة العربية للدراسات و النشر ،بيروت،1984، ص107
(28) المرجع السابق، ص117
(29) المرجع السابق، ص138
(30) المرجع السابق، ص205
(31) المرجع السابق، ص208
(32) المرجع السابق، ص582
(33) المرجع السابق، ص60
(34) المرجع السابق، ص522
(35) المرجع السابق، ص253
(36) المرجع السابق، ص219
(37) يمنى العيد،الراوي: **الموقع و الشكل**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،1986،ص145
(38) عبدالرحمن منيف، ص ص 97-98
(39) المرجع السابق، ص175
(40) المرجع السابق، ص212
(41) المرجع السابق، ص98
(42) المرجع السابق، ص267
(43) يمنى العيد، ص146
(44) Edwards w. Said, *Culture and Imperialism* (New York : Vintage Books, 1993), p.33
(45) محمد أزوقة، ص ص7-8
(46) المرجع السابق، ص36
(47) المرجع السابق، ص13
(48) المرجع السابق، ص12
(49) المرجع السابق، ص11
(50) المرجع السابق، ص ص 18-19
(51) المرجع السابق، ص38
(52) المرجع السابق، ص40

(53) المرجع السابق، ص45
(54) المرجع السابق، ص97
(55) المرجع السابق، ص303
(56) حنان الشيخ، **مسك الغزال**، دار الآداب ،بيروت،1988، ص137
(57) المرجع السابق، ص165
(58) المرجع السابق، ص135
(59) المرجع السابق، ص133
(60) المرجع السابق، ص173
(61) المرجع السابق، ص177
(62) المرجع السابق، ص182
(64) المرجع السابق، ص182
(65) George Lukacs, *History and class Consciousness*, tr.Rodney Livingstone (London : Merlin Press 1971), p91
(66) يوسف إدريس، **نيويورك 80**، مكتبة معد للطباعة، القاهرة،1980،ص68
(67) المرجع السابق، ص46
(68) المرجع السابق، ص45
(69) المرجع السابق، ص34
(70) المرجع السابق، ص121
(71) المرجع السابق، ص99
(72) المرجع السابق، ص109
(73) سلمى الحفار الكزبري ، ص121
(74) المرجع السابق، ص122
(75) محمد محمود الخزعلي،" **نيويورك في الشعر العربي الحديث** " في كتاب العلاقات العربية الأمريكية ، نحو مستقبل أفضل، تحرير سامي عبدالله خصاونة ، الجامعة الأردنية ، عمان،2001، ص393

المصادر والمراجع

المصادر

إبراهيم، صنع الله، **اللجنة**، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط2، 1989.

إدريس، يوسف، **نيويورك 80**، مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، 1980.

أزوقة، محمد، **الثلج الأسود**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988.

الأطرش، ليلي، **وتشرق غرباً**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988.

الشيخ، حنان، **مسك الغزال**، دار الآداب،بيروت، 1988.

الصقر، مهدي عيسى، **الشاهدة والزنجي**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987.

الكزبري، سلمى الحفار، **البرتقال المر**، دار النهار للنشر، بيروت، 1974.

منيف، عبد الرحمن، **مدن الملح "التيه"**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.

المراجع:

الخزعلي، محمد محمود، **"نيويورك في الشعر العربي الحديث"**، في كتاب، العلاقات العربية الأمريكية، نحو مستقبل أفضل، تحرير سامي عبد الله خصاونة، الجامعة الأردنية، عمان، 2001.

العيد، يمنى، **الراوي: الموقع والشكل**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1986.

Lukacs, Georg, *History and Class Consciousness*, tr. Rodney Livingstone(London: Merlin Press 1971).

Said, Edward W., *Culture and Imperialism (New York*: Vintage Books, 1993).